الفصل السابع

إبراهيم بيومي مدكور

بين الفلسفة واللغة

الفصل السابع

إبراهيم بيومي مدكور
بين الفلسفة واللغة

أولاً: مكانته الفكرية

يُعد د. إبراهيم بيومي مدكور (1902 - 1995م) واحدًا من كبار رواد الفكر الفلسفي المصري والعربي خلال القرن العشرين، كما أنه يُعد واحدًا ممن كان له الفضل الأكبر في الحفاظ على لغتنا العربية برئاسته لمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام 1974م حتى وفاته وأنجز المجمع أثناء هذه الفترة أعمالاً رائدة في إصدار القواميس ومعاجم المصطلحات ومعاجم الأعلام مما كان ولا يزال له آثره الكبير في الثقافة العربية المعاصرة.

ثانياً: حياته

ولد د. إبراهيم مدكور بقرية أبي النمرس من قرى محافظة الجيزة عام 1902م. ولما كان والده من أسرة ميسورة الحال فقد أخضعه منذ صباه لمراحل التعليم المختلفة المتاحة لمن هم في طبقته وفي مثل سنه؛ حيث أدخله كُتَّاب القرية ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم، ثم ألحقه بعد ذلك بالمدارس الأولية، ثم أدخله الأزهر فمدرسة القضاء الشرعي حيث نجح في اجتياز القسم الابتدائي فيها ثم التحق بدار العلوم وحصل على دبلومها عام 1927م. ولم يكن أثناء دراسته بدار العلوم بعيد الصلة عن الحياة الأكاديمية الأولى بجامعة القاهرة التي كان يدرس بها حينذاك الشيخ مصطفى عبدالرازق إذ يبدو أنه تعرف على آراء الشيخ وأعجب بها. عقب تخرجه من دار العلوم عين مدرسًا بإحدى المدارس الابتدائية في القاهرة

عـام 1928م. وأثناء ذلك رشـح لمنحة للدراسـات العليا بإنجلترا لكن ظروف سياسـية حالت دون سفره على نفقة الحكومة في تلك البعثة الدراسية. ولكن كان إصراره على إكمال دراسته في أوربا أشد من هذه الظروف التي حالت دون استفادته من البعثة، فسافر على نفقته الخاصة إلى فرنسا عام 1929م، ولكنه ضم ذلك إلى البعثة المصرية للدارسين في فرنسا. وقد قضى في باريس سـت سنوات حصل خلالها على دبلومات في المنطق والفلسفة والاجتماع والأخلاق والاقتصاد والتربيـة وعلم النفس. وفي ذات الوقت حصل على ليسـانس الآداب من جامعة السربون عام 1931م. كـما حصـل على ليسـانس الحقوق مـن جامعة باريس عـام 1933م. تقـدم للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسـفة الإسـلامية، فكان موضوع رسـالته الأولى «أثر الأورجانون (المنطق) الأرسطي على فلاسفة العالم الإسلامي»، وكان موضوع رسالته الثانية «مكانة الفارابي في المدرسـة الفلسفية الإسلامية». وقد نشرت الرسـالتين بباريس، وقدم للرسالة الأولى العلامة الهولندي سـمون فان دنبرغ مشـيدًا بقدرة صاحبها وعلو مداركه و إلمامه الواسع بالأبحاث في مجال المنطق والفلسفة، وأكد أنه سيكون من أجل المراجع في بحوث تاريخ المنطق وقد صدق حدسـه لأن هـذا البحث يُعد حتـى الآن بالفعل من البحوث المحورية في الدراسـات المتعلقة بتاريخ المنطق عمومًا، والمنطق العربي على وجه الخصوص.

أما الرسالة الثانية فقد قدم لها العلامة الفرنسي لويس ما سينيون قائلاً أنها تُعد بحثًا منطقع النظير في نظريات الفارابي الفلسـفية نظرًا للتكويـن المتفرد لصاحبه الذي امتزج فيه اطلاعه العميق على ثقافتين عاليتين؛ هما الثقافة العربية والثقافة الغربية.

عاد د. مدكور إلى مصر عام 1935م ليقوم بنشـاط مزدوج في الحياة الأكاديمية والسياسية في وطنـه، فقد عين فـور وصوله عضوًا بهيئـة التدريس بكلية الآداب فظل يتـدرج فيها حتى صار أستاذًا بها ثم أستاذًا متفرغًا عقب إحالته إلى التقاعد، وفي ذات الوقت بدأ نشاطه السياسي الواسـع حيث أصبح منذ عام 1937م عضوًا بمجلس الشـيوخ المصري. و إلى جانب هذا وذاك درس في عـدة جامعـات مصرية على رأسـها جامعة الأزهـر، وكذلك درس في عـدة جامعات عربية. فقد سـافر أثناء خدمته الأكاديمية إلى بغداد و إلى طهران. كما سافر إلى باريس لإلقاء محاضرات عن فلاسفة العرب والإسلام.

و يُعـد عـام 1946م عامًا مهمًا من أعوام حياتـه، حيث صدر فيه المرسـوم الملكي باختياره

عضوًا في مجمع اللغة العربية حيث بدأ حياته المجمعية النشطة، وتدرج في المناصب القيادية فيه فاختير لعضوية مكتب المجمع، ثم عين كاتبًا لسر المجمع عام 1959م، ثم أمينًا عامًا للمجمع عام 1961م. ثم رأس المجمع خلفًا للدكتور طه حسين عام 1974م. وعرف خلال عمله المجمعي بالاهتمام بإخراج أعمال المجمع إلى النور فنشرت مجموعة من المعاجم منها المعجم الوسيط، والمعجم الوجيز، والمعجم الكبير، واستطاع أن يخرج في سبع سنوات من المصطلحات حوالي خمسة وعشرين ألف مصطلح علمي وحضاري. كما يعزى إليه تنظيم إصدار مجلة علمية للمجمع. ومثل المجمع في عدة مؤتمرات دولية منها مؤتمر اللغويين السادس الذي عُقد في باريس، ومؤتمر المستشرقين الحادي والعشرين بباريس أيضًا. ولم يشغله عمله المجمعي هذا عن مواصلة نشاطه العلمي في مجال الفلسفة، حيث قام بجهد وافر في مجال تحقيق التراث الفلسفي الإسلامي وشارك في عشرات المؤتمرات التي عقدت في مصر ومختلف بلاد العالم لإحياء ذكرى الفلاسفة العرب؛ فقد شارك في إحياء الذكرى الألفية لابن سينا في بغداد عام 1951م، وفي مهرجان الغزالي بدمشق وفي مهرجان ابن خلدون بالقاهرة، وأشرف على إخراج وتحقيق كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب المغنى للقاضي عبدالجبار المعتزلي، كما اشترك في الإشراف على إعداد الموسوعة العربية التي أخرجتها الجامعة العربية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين. كما أشرف كذلك على إصدار الترجمة العربية لموسوعة تاريخ العلم لجورج سارتون.

وبالإضافة إلى هذا النشاط الأكاديمي والمجمعي، كان له نشاطه السياسي البارز فقد كان له دوره البارز في الإصلاح السياسي والإداري بالدولة، فاشترك في لجنة التحقيق حول قضية الأسلحة الفاسدة عام 1948م، كما كتب كتابًا في الإصلاح الحكومي بعنوان «الإدارة الحكومية» أصدره عام 1945م. كما كان له نشاطه الثقافي العلمي حيث كتب عشرات المقالات في الصحف والمجلات المصرية والعربية، وكان أهم هذه المجلات مجلة «الرسالة» ومجلة «الثقافة» ومجلة «الفصول» ومجلة «الهلال» ومجلة «مجمع اللغة العربية» ومجلة «القاهرة». كما كتب عدة مقالات لصحيفة «الأهرام». كما كتب مقدمات لعشرات الكتب المؤلفة والمحققة ولكثير من الإصدارات المجمعية. كما شارك بالإشراف والكتابة لعدد من الكتب المهداة إلى أصدقائه وأساتذته منها كتاب عن الشيخ مصطفى عبدالرازق، وكتاب عن يوسف كرم، وكتاب عن عثمان أمين، وكتاب عن أحمد أمين وآخر عن أحمد لطفي السيد.

وقد حرص وسط هذا النشاط الواسع أن يواصل رسالته الأكاديمية في إلقاء المحاضرات والإشراف على الرسائل الجامعية والاشتراك في مناقشتها حيث تخرج على يديه أجيال من الباحثين في مختلف فروع الفلسفة الإسلامية. وقد حصل د. مدكور خلال حياته على العديد من الجوائز من مصر والعالم، كان أبرزها جائزة الدولة التقديرية من مصر، والدكتوراه الفخرية التي منحتها له جامعة بريستون بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1964م تقديرًا لجهوده في تدعيم التبادل الثقافي بين أبناء العروبة وأبناء الغرب. وقد توفى د. مدكور في الخامس من ديسمبر 1995م وكان لوفاته صدى حزينًا في الأوساط الأكاديمية والمجتمعية.

ثالثًا: مؤلفاته

كان د. مدكور من المقلين في مجال التأليف وربما يرجع ذلك إلى سببين؛ أولهما: انشغاله بالعمل المجمعي والعمل السياسي. وثانيهما: تدقيقه الشديد فيما يخرجه من مؤلفات فلم يكن من المتعجلين في الكتابة أو في إصدار المؤلفات. وليس أدل على ذلك من عدم ترجمته للكتابين اللذين نشرا بالفرنسية في باريس عام 1934م.

كتب د. مدكور في مجال الفلسفة ثلاث مؤلفات كان أهمها بلا شك كتاب «في الفلسفة الإسلامية.. منهج وتطبيق» الذي سنتوقف عنده بعد قليل، والثاني كان بعنوان «دروس في تاريخ الفلسفة» وهو كتاب مدرسي شارك معه في تأليفه يوسف كرم وقد وضعا هذا الكتاب لطلاب المدارس الثانوية ولذلك جاء في أسلوب مبسط تميز بالدقة والوضوح. وقد بدأه بتصدير عن الفكر الشرقي القديم باتجاهاته المختلفة في مصر وبابل وفارس والهند والصين. ثم قسماه إلى ثلاثة أبواب تحدثا في الباب الأول عن الفلسفة اليونانية وعرضا لتاريخها، وفي الباب الثاني تحدثا عن الفلسفة المسيحية والفلسفة الإسلامية في فصلين متتاليين. أما الباب الثالث والأخير فقد تعرضا فيه لدراسة الفلسفة الحديثة وعرضا فيه لأهم اتجاهاتها ومدارسها.

أما الكتاب الثالث فهو «في الفكر الإسلامي» وهو عبارة عن تجميع لبعض المقالات والدراسات التي نشرها من قبل في المجلات العربية أو الفرنسية حول بعض الشخصيات الفلسفية الإسلامية أو بعض قضايا الفكر الإسلامي، ومن هذه الدراسات دراسة عن أثر حركة الترجمة على تطور الفكر الإسلامي، وأخرى عن المصطلح الفلسفي عند الفارابي، وثالثة عن

فلسـفة ابن سينا، ورابعة عن الماوردي وفلسفته السياسية، وخامسة عن البيروني، وسادسة عن البيروني، وأخرى عن فلسـفة ابن ميمون، ومنها دراسـة رائعة عن القيم الإنسانية في الإسلام، وأخرى عن مشكلات الألوهية في الإسلام.

وفي مجـال الدراسـات اللغوية والأدبية، كتـب مدكور ثلاث مؤلفات أولهـا «مجمع اللغة العربية في ثلاثين عام» وصدر عام 1946م، وهو عبارة عن تأريخ لمجمع اللغة العربية: نشـأته ورواده وقراراتـه ولوائحـه. وثانيهـا « كتاب «مـع الخالدين» الذي أصدره في العيد الخمسـين للمجمع عام 1981م. واشـتمل على بعـض المقالات والكلمات التي ألقاها في مناسـبات مختلفة للمجمع وكانت معظم هذه الكلمات متعلقة بشـخصيات مجمعية ورصدًا دقيقًا لجهودها سواء في كلمات الاستقبال التي كان يلقيها في استقبال الأعضاء الجدد للمجمع، أو في كلمات التأبين التي كان يلقيها في وداع الراحلين من هؤلاء الأعضاء. أما ثالثها فهو كتاب «في اللغة والأدب»، وهـو أهم هـذه المؤلفات نظرًا لأنه ناقش فيـه قضايا تتعلق باللغـة والأدب عبر أربعة أبواب؛ تحدث في الأول عن تطور اللغة العربية والصلة بينها وبين الفكر والقياس والتعريف ونشـأة النحـو العربي، وتطوره ومنزلـة اللغة العربية بين اللغات العالمية الكبرى. وفي الثاني تحدث عن لغة العلم ومصطلحاته، أما الباب الثالث فقد خصصه للحديث عن فن كتابة المعاجم اللغوية ونشأتها وتطورها، وخصص الباب الأخير للحديث عن الأدب وقضايا الشعر والقصة.

وفي مجال الدراسـات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية كتب مدكور كتابين؛ أولهما «في الأخـلاق والاجتماع» وهو كتيب أصدره عام 1974م اشـتمل على عديـد من مقالاته في بعض المجلات، وقد قسـمه إلى جزئين؛ خص الجزء الأول بالحديث عن بعض القضايا الأخلاقية مثل الضمـير، الوحـدة، الإيمان، العقيدة، الخلود، الحق والقوة وهي قضايا تدور حول سـلوك الفرد وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه. وقد كتب فيها بالطبع من منظور فلسفي عقلاني. أما الجزء الثالـث فقد خصصه للحديث عـن واحدة من أهم الظواهر الاجتماعيـة المعوقة للتقدم وهي ظاهـرة الخرافة فتحدث عن أصلها ونشـأتها ومدى أثرها على المجتمـع الشرقي باعتبار الشرق موطنًا خصبًا لانتشار الخرافة.

وثانيهـما هـو «الإدارة الحكوميـة» الذي نشره عـام 1945م ويُعد من أوائـل مؤلفاته التي تعكس اهتمامه بقضايا الإصلاح السياسي، وقد كتبه بمشاركة مريت غالي. والطريف أن هذا

الكتاب طبع منه في البداية مائة وأربعين نسخة عام 1943م وزعها المؤلفان على كبار المشتغلين بالشئون العامة والسياسيين، ثم أعيد طبعه في سبتمبر 1945م، واشتمل على بابين، وكل باب اشتمل على أربعة فصول؛ تحدث في الباب الأول عن النظام الملكي النيابي، والبرلمان، والوزارة، ومجالس الدولة. وتحدث في الباب الثاني عن الخدمات العامة، والإنتاج الإداري، والموظفين والقضاء.

رابعا: منهجه وآراؤه الفلسفية

استند مدكور في دراسته للفلسفة الإسلامية على منهج نجح من خلاله في دحض العديد من الفروض الخاطئة حول الفلسفة الإسلامية. ولاشك أن هذا المنهج هو استكمال للطريق الذي رسم معالمه الشيخ مصطفى عبدالرازق في كتابه «التمهيد»، وإن كان منهج مدكور في الدراسة يعتمد على استخدام منهجين يمتزجا معًا في ثنايا الدراسة فتأتي الثمار يانعة والنتائج واضحة؛ والمنهجان هما: المنهج التاريخي الذي يعني لديه العودة إلى الأصول الأولى من خلال استعادة الماضي والتأليف بين أجزائه البالية لتبدو صورة الواقع الذي عاشوا فيه واضحة، والمنهج المقارن الذي يتيح المقارنة بين الآراء والأشخاص والمقابلة بينها وجهًا لوجه. وهذا المنهج بشقيه التاريخي والمقارن هو ما طبقه مدكور في دراسته للفارابي في رسالته للدكتوراه، ونجح من خلاله في كشف نقطة البدء في فلسفته وبين كيف ترتبت عليها آراؤه ونظرياته المختلفة ومن ثم حدد منزلته في المدرسة الفلسفية الإسلامية. وها هو يعيد تطبيقه على دراسة الفلسفة الإسلامية ونظرياتها ككل. وعبر جزئين من كتابه «في الفلسفة الإسلامية.. منهج وتطبيق»، يطبقه على دراسة نظريات السعادة والنبوة والنفس وخلودها في الجزء الأول، وعلى نظريات الألوهية وحرية الإرادة في الجزء الثاني.

وقد شرح كل نظرية من هذه النظريات وأعطى فكرة كاملة عنها مستخدمًا لغة الفلاسفة أنفسهم وصورها بالصورة التي بدت عليها في العالم الإسلامي محاولاً تلمس أصولها والبحث عن مصادرها فيما نقل إلى العربية من أفكار أجنبية يونانية، أو فيما جاء به الدين من تعاليم. ثم تتبع تاريخ هذه النظريات وتطورها لدى هؤلاء الفلاسفة الذين نشأت على أيديهم وترعرعت من خلال كتاباتهم ومناقشاتهم. ولم يمنعه هذا التتبع التاريخي من محاولة بيان أثر

هذه النظريات عند اليهود والمسيحيين في القرون الوسطى، ولم يفته أن يلحظ أوجه الشبه بين ما قدمه فلاسفة الإسلام وما قدمه الفلاسفة المحدثون حيث كان يعتبر - وهذا حق - أن الفلسفة الحديثة مدينة في كثير من مبادئها لفلسفة القرون الوسطى. (ج1، ص8).

لقد تميزت رؤية مدكور للفلسفة الإسلامية بالوضوح الشديد؛ حيث أعلن رأيه في كل قضاياها بدون تردد ومصحوبة بعشرات الأدلة والحجج على صحة ما يذهب إليه. ومن هذه الآراء التي أعلنها واضحة، رأيه في قضية التسمية؛ هل نسميها فلسفة عربية أم فلسفة إسلامية؟! فقد اعتبر أن الخلاف بين المؤرخين حول هذه القضية خلاف لفظي لا طائل تحته «ذلك لأنها نبتت كلها في جو الإسلام وتحت كنفه وكتب جلها باللغة العربية» (ص14). ومن ثم أكد أنه يميل لتسميتها «فلسفة إسلامية» لاعتبار واحد هو أن الإسلام ليس دينًا فقط، بل هو دين وحضارة.. فهي إسلامية في مشاكلها والظروف التي مهدت لها، وهي إسلامية أيضًا في غاياتها وأهدافها، و إسلامية أخيرًا بما جمعه الإسلام في باقتها من شتى الحضارات ومختلف التعاليم (ص15).

أما عن موقفه من قضية صلتها بالفلسفة اليونانية فهو لا ينكر أن التفكير الفلسفي في الإسلام قد تأثر بالفلسفة اليونانية.. ومن ذا الذي لم يتتلمذ على من سبقه و يقتف أثر من تقدموه؟! ولكنه يرى أنه من الخطأ أن ذهبنا إلى أن هذه التلمذة كانت مجرد تقليد ومحاكاة وأن الفلسفة الإسلامية ليست إلا نسخة منقولة من أرسطو كما زعم رينان أو عن الأفلاطونية الحديثة كما ادعى دوهيم؛ ذلك لأن الثقافة الإسلامية الإسلامية نفذت إليها تيارات متعددة اجتمعت فيها وتفاعلت؛ كما أن تبادل الأفكار واستعارتها لا يستلزم ائمًا استرقاقًا وعبودية فالفكرة الواحدة يتناولها أشخاص متعددون ولا تلبث أن تظهر على أيديهم في مظاهر مختلفة. ولفيلسوف أن يأخذ عن آخر بعض آرائه ولن يمنعه ذلك من أن يأتي بنظريات خاصة وفلسفة مستقلة» (ص19).

وهكذا عبر مدكور بموضوعية صارمة عن رأيه في هذه القضية التي تتسم الآراء حولها بالتعصب إما للرأي القائل بالأصالة المطلقة للفلسفة الإسلامية، أو للرأي القائل بأنها كانت فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية!!

إن مفكرنا يؤمن ككل المؤرخين الموضوعيين بأن أي عصر من عصور الفلسفة يأخذ أعلامه من سابقيهم بقدر ما يعطوا للاحقين عليهم. وعلى هذا أكد في «دروس في الفلسفة» أن الفلسفة اليونانية قد تأثرت بلا شك بالفكر الشرقي في مصر وبابل وآشور، كما يؤكد هذا في «الفلسفة الإسلامية» أنها تأثرت بالفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات السابقة عليها، وأنها بدورها قد أثرت في الفكر المسيحي في العصر الوسيط كما أثرت على الفكر الغربي في عصر النهضة والعصر الحديث.

ومع ذلك فهو يرى أن «الفلسفة الإسلامية ذات طابع وشخصية مستقلة أخص خصائصها التوفيق والاختيار، فتوفق بين النقل والعقل، وتؤاخي بين الدين والفلسفة، ذلك لأن فلاسفة الإسلام يرون أنه يمكن كشف الحقيقة عن طرق شتى وبوسائل متعددة». (ص252).

وفي هذا الإطار العام لرؤية مدكور لخصوصية الفلسفة الإسلامية رغم تأثرها بما قبلها يحذرنا من خطأين؛ أولهما الوقوف بالتفكير الفلسفي الإسلامي عند القرن السادس الهجري ظنًا من المؤرخين أن حملة الغزالي على الفلاسفة قد قضت على كل تفكير فلسفي. فهذا في رأيه «زعم باطل؛ فهناك تفكير فلسفي امتد إلى اليوم وأن اكتسى بألوان مختلفة وأوضح ما يبدو في ثنايا الدراسات الكلامية والصوفية أو ممزوجًا ببعض البحوث العلمية ولا يزال يتدارس في بعض المعاهد الشرقية». (ص257). والخطأ الآخر يتعلق بوضع حد فاصل بين الفلسفة الحديثة وبين فلسفة القرون الوسطى وكأنها نسيج وحدها لم تتأثر بشيء من قبلها، والأغرب من هذا أن يسلم البعض أنها تأثرت بالفلسفة القديمة دون أن تأخذ شيئًا من المدرسيين (أي فلاسفة القرون الوسطى) مع أن هذه الفلسفة القديمة لم تبلغ المحدثين وحيًا ولم تنزل عليهم تنزيلاً وإنما مرت بالقرون الوسطى قبل أن تنتقل إليهم. (ص257).

وقد كشف مدكور عن صلات عديدة ووجوه شبه كثيرة بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة منها مثلاً التشابه الذي لحظه بين الحب الفلسفي عند اسبينوزا ونظرية السعادة الفارابية (ص77 - 78). وكذا نظرية النبوة عنده وصلتها بنظرية النبوة الإسلامية (ص138 - 140). وأيضًا التشابه بين برهان الرجل المعلق في الفضاء لابن سينا وبين الكوجيتو الديكارتي (ص190 - 194).

أهم المصادر والمراجع

- ملف خدمة د. إبراهيم مدكور في الجامعة المصرية، أرشيف كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- د. إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية.. منهج وتطبيق، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1367ه/1947م.
- د. إبراهيم مدكور ويوسف كرم: دروس في تاريخ الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة 1953م.
- د. إبراهيم مدكور: في الأخلاق والاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974م.
- د.عثمان أمين وآخرون: دراسات فلسفية مهداه للدكتور إبراهيم بيومي مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974م.
- عصمت حسين نصار: مدرسة مصطفى عبدالرازق وأثرها على الفكر الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، 1991م.